

الفصل الرابع

الأسرة وتنمية الابتكار لدى الأبناء

عرفنا الابتكار وخصائصه والتي تتمثل في تخلص الأفراد من الأنماط التقليدية في التفكير والتعامل مع الأشياء والمواقف بمنظور جديد غير مألوف والقيام بحلول متميزة للمشكلات تختلف عن الحلول السابقة واصطباغ الحلول الإبداعية المبتكرة المقدمة بعدم الشيعوع من جانب والملائمة من جانب آخر ، ولهذا فإن القليل منا مبتكرون والكثير منا مقلدون ، والقليل منا مبدع أو مخترع والكثير متلق متبع ، ولكن يمكن أن يكون كل أبنائنا مبتكرين .. وكل الأطفال مبدعين لأن لديهم سمات الابتكار والإبداع ، ولكن كيف يتحقق ذلك؟ ..

يكون بالطبع عن طريق الأسرة أولا والمدرسة ثانيا والإعلام ثالثا .. ويمكن أن يؤثر الإعلام من خلال العملية التعليمية ، ولكن الأسرة دورها يكون حيويا وهاما لأن الأطفال يملكون إمكانية الابتكار والاكتشاف والأسرة يكون عليها أن تساعد الطفل على إظهار القدرات الإبتكارية التي تتمثل - كما رأينا - في خمس قدرات هي : الطلاقة الفكرية ، والأصالة ، والمرونة الفكرية ، والحساسية للمشكلات ، والاحتفاظ بالاتجاه ويلعب المناخ الأسري دورا هاما في تنمية قدرات الطفل حيث يحقق له أهم مطالب النمو النفسي والاجتماعي(٢٨/٤٥) .

وسوف نناقش هنا دور الأسرة في تربية التفكير الابتكاري لدى الأبناء وتنمية القدرات الإبتكارية لديهم من خلال ما يلي :

١- البيئة الأسرية والتفكير الابتكاري لدى الأطفال :

البيئة هي الإطار الذي يعيش فيه الفرد وفيه ينمو وفيه يحيا وفق نظام اجتماعي معين ، ويتأثر الفرد أول ما يتأثر بالبيئة الأسرية أو العائلية لأنها النظام والإطار الاجتماعي الذي يولد فيه الفرد وينمو حتى يصل إلى سن رياض الأطفال أو سن المدرسة .

فالأسرة هي الوسيط الأول للتنشئة الاجتماعية ، ونموذج التنشئة الأسرية هو الذي يشجع على إبراز التفكير الإبداعي عند الأبناء وتتكون الأسرة من الأب والأم والإخوة والأخوات ، بالإضافة إلى الأجداد والأحفاد إن وجدوا ، ولكل منهم نمط للتفكير الإبداعي الابتكاري ، ويرتكز تبني الأسرة للتفكير الابتكاري على متطلبات متعددة تتأثر بها الأسرة ويتأثر بها الأفراد وتنعكس على الأطفال داخل هذه الأسرة ، ومن هذه المتطلبات : (٥٨ / ١٤٢-١٤٣)

- أن التفكير الابتكاري ليس هو الذكاء أو التفوق ولكنه حسن التعامل مع الأمور ، أي الجدة مع الملاءمة .

- لكل فرد من الأفراد قدرة معينة على التفكير الابتكاري ، والفرق بين شخص وآخر يكون في درجة هذا التفكير فقط ، فالابتكار ما هو إلا أسلوب تفكير ، ويوجد عند كل الناس بدرجات متفاوتة ، والمهم أن يتم تنمية هذا الأسلوب من أجل اكتساب الطفل التفكير الإبداعي والابتكاري وتنميته عنده .

- أن التفكير الإبداعي الابتكاري مثل أي تفكير آخر ، ويتحدد من خلال عوامل متعددة منها العوامل المعرفية وأيضا الوجدانية والمزاجية ، كما أن هناك العوامل الاجتماعية التي تؤثر في هذا التفكير ، وفي هذا المجال يجب على الآباء أن يفكروا في هندسة المحيط الأسري بشكل يساعد على تنمية التفكير الإبداعي .

- لا بد أن يتخلص أفراد الأسرة من عقدة « الألفة » أي لا بد أن يقبلوا على ما هو غير مألوف لهم ويفكروا على نحو غير شائع قدر تفكيرهم بما هو شائع ، فلا بد من تعليم الأطفال قبول عدم الشبوع مادام لا يختلف في النهاية مع قيم المجتمع وأهدافه ، ولا بد من التسليم بأن « هناك وجهها آخر للحقيقة دائما » .

- لا بد أن تتقبل الأسرة كل مخرجات التفكير الإبداعي والابتكاري لأبنائها ، حتى لو أثر على مجالات أخرى داخل الأسرة وداخل المجتمع ، فلا نمو ولا تطور إلا بالتفكير الابتكاري .

- أن تشكيل القدرات الابتكارية لا بد وأن يبدأ مبكرا حتى يتم توظيف الإمكانيات في أقصى حد لها .

كل ذلك يضيف على البيئة الأسرية أهمية خاصة ودورا في غاية الأهمية لتربية الأطفال تربية إبداعية ابتكارية (٧٦ / ١٠٤ - ١٠٥) .

فالبينة الأسرية تسهم بقوة وتساعد بفاعلية على تنمية التفكير الابتكاري والإبداعي عند الأطفال من خلال ما يلي : (٥٨ / ١٢٤ - ١٢٥)

- أنه الإطار البيئي الذي يعيش فيه الفرد يرسم طابع سلوكه وحدود حركته حتى لو كان مهيا لسلوك أبعد مدى وحدود أكبر منه وأكثر اتساعا .

- للخبرات المبكرة تأثيرها على الفرد إلى حد ينعكس أثره على الخبرات اللاحقة حتى لو حملت هذه الخبرات الجديدة إمكانية مختلفة للسلوك .

ومن هنا فإن للبيئة الأسرية دورا هاما في التأثير على التفكير الابتكاري للأطفال وتنمية هذا التفكير وإبراز القدرات والإمكانات الإبداعية للأطفال .

٢- دور الوالدين في تنمية الابتكارية لدى أطفالهم :

الأسرة من أهم وسائط تنشئة الأطفال ، بما يقدمه الوالدان ويوفرانه من أسباب النمو للقيم الخلقية والوطنية والمدنية والدينية لدى الطفل .

فالأم تؤثر بشدة في تنمية الابتكارية لدى الأطفال ، لأن الأم الرؤوم ذات الطبع المستقر تولد لدى الطفل شعورا بالأمن والطمأنينة ، ويكون منطلقا لشعوره المقبل بالاستقلال ، إنها تؤكد استقلاله عن طريق الحماية التي يقدمه له عطفها وحنانها ، وعندما تكون العلاقة بينه وبين أمه خالية من كل قلق ، وعندما يتقبل الطفل قيم العائلة قبولا حسنا وسليما تصبح نزعاته الاستقلالية وروح المعارضة عنده من أهم العوامل في نمو شخصيته (٤٧ / ٢٩) ..

وتغدو الأم ، فيما بعد ، عوننا لطفلها على تطوير قدراته وعلى اكتساب القيم وعلى توليد معايير القيم الخاصة به ، ومن المفترض أن تعي الأم كيف تسهم إسهامات العائلة في النمو الفكري والعاطفي والإبداعي والابتكاري للطفل عن طريق تجويد البيئة العائلية التي يحيا فيها الطفل ، وهو تعلم غير مباشر ، كما يجب على الأم أن توظف الأسرة في النمو الفكري للطفل عن طريق تقديم العوامل المهمة للابتكار وذلك بإيقاظ الجرى الطبيعي للنمو لدى الطفل وتوجيهه ودفعه إلى الأمام .

أما الآباء ، فلا بد أن يكونوا قادرين على رعاية أبنائهم رعاية صادرة عن معرفة بحاجات نمو الطفل ، وذلك عن طريق رعاية النشاطات المبدعة والتي تساعد على نمو الابتكارية في نفوس أبنائهم ، فالنشاطات الابتكارية التي يساعد فيها الأب عديدة ، منها توفير الوسائل المختلفة التي تساعد على هذه الأنشطة من الرسم وجمع المكعبات واستخدام الصلصال والإمساك بالريشة والقلم .. إلخ من أنواع اللعب ، وكذلك تنمية روح القصد والغاية عند الأطفال ، واللعب معهم ، والاهتمام بالجوانب الإيجابية لدى الأطفال ، فإذا اتسم الآباء بالمرونة في ممارسة أدوارهم الاجتماعية ومشاركة الأبناء في اهتماماتهم وتشجيعهم على ممارسة مواهبهم وإبداعاتهم وتفكيرهم اتسم الأطفال بالابتكارية .

ولقد بينت الدراسات التجريبية أن آباء المبدعين يمثلون عاملا حاسما في أدايتهم الإبداعي من حيث كونهم نماذج للتوحيد معهم ومن حيث استثارتهم لمواهب أبنائهم ومحاولة تنمية هذه المواهب ، كما أن تصرفات الآباء والأمهات كما يتلقاها الأبناء أهم العناصر في تشكيل سلوكهم بوجه عام وسلوكهم المعرفي والإبداعي بوجه خاص وذلك من خلال تعليمات الآباء اللفظية ، وهذه التصرفات أهم من الأمان اللفظية للآباء والأمهات (١٢/٣٤ ، ٤٧) .

ولا بد أن تساعد الظروف الأسرية المناسبة (واتساقها النفسي والاجتماعي) على تنمية السلوك الابتكاري عند الأطفال ، والذي يتجلى فيه تعبير الشخص عن نفسه بتلقائية تخلو من الاتباعية للمعايير السائدة في النظر إلى موضوع ابتكاره أو إبداعه ، كما لا بد وأن تخلو من القهر على المحاكاة ، فاصطبغ الجو الأسري بالأمان والتشجيع على المبادرة يساعد على نمو الابتكار والإبداع لدى الأبناء ، ولهذا نجد ملامح ذلك الأمر في تقارير من المبدعين عن معاملة آباؤهم لهم (١٢٩/٣٤) حيث ذكر بعض المبدعين والمبتكرين أنهم كانوا يتمتعون أثناء تنشئتهم الاجتماعية بقدر كبير من الحرية في اتخاذ القرارات واكتشاف بيئتهم ، وأهم لم يتعرضوا لحماية زائدة أو لرفض من الوالدين ، هذا في نفس الوقت الذي وضع فيه الوالدان مستوى محدد للسلوك والقيم وكانا مثلا للتوحيد مع أبنائهم ، كما كانا يحترمان هؤلاء الأبناء احتراماً غير عادي ويثقان في

قدرتهم على العمل بالطريقة الملائمة ، بينما أثبتت دراسات أخرى عن العلماء المخترعين أن علماء الطبيعة والبيولوجيا المبدعين يشعرون باحترام حقيقي لآبائهم وإن كانوا لا يرتبطون بهم وجدانيا بينما يرتبطون وجدانيا بأمهاتهم ، فمرونة الأسرة (آباء وأمهات) في السماح لأبنائها بالقيام بأي نوع من أنواع النشاط الاستكشافي العقلي أو اليدوي وعدم تصلبها في منع هذا النشاط لها تأثير كبير في تنمية وتشجيع الإبداع والابتكار لدى الأبناء، وبالعكس ، فإن إكراه الأم لابنها يرتبط ارتباطا سلبا بدرجات الإبداع وبالسلوك الابتكاري للأبناء والذي يتضمن بالضرورة عناصر الإنجاز الإبداعي أو الابتكاري .

وفي نفس الاتجاه ، أوضحت الدراسات تميز أمهات الأبناء مرتفعي الإبداع بالسماح لأبنائهن في سن أكثر تبكيرا بنوع من الاستقلال والسلوك الاستكشافي وحرية اتخاذ القرارات في تصرفاتهم داخل المنزل أو خارجه ، كما أن هؤلاء الأمهات كن يسمحن لأبنائهن ، أكثر من باقي الأمهات ، باستكشاف الطعام قبل تصحيح محاولتهم بطريقة فعالة ، كما أنهن ، مع أمهات متوسطي الإبداع ، يسمحن لأبنائهن بالتفكير (في سن أكثر تبكيرا) في مجال العمل الذي يؤدونه عند رشدهم ، كما أثبتت دراسة أخرى (١٣١/٣٤) أن استقلال الأولاد عن آراء الآباء والأمهات يؤدي للإبداع والابتكار والاختراع ، وهذا يتحقق مع قدر متوسط من العلاقات الوجدانية مع الوالدين ، وأن الأكثرين إبداعا قد وصفوا آباءهم بأنهم أقل ميلا إلى التسلبية والضغط والقهر ، كما وصفوا أمهاتهم بأنهم أقل في التباعد العدائي والقهر والضغط وأقل في العقاب الرمزي والعقاب البدني المباشر والضغط العدواني ، وأثبتت هذه الدراسة أيضا أن بعد الاستقلال والضغط هو أكثر المقاييس المستخدمة اتصالا بالابتكار ، وأن العلاقة بالأب كما يدركها الأبناء في بعد الاستقلال والضغط أكثر من العلاقة بالأم اتصالا بالإبداع العلمي المبكر ، كما يميل عدد أكبر من الطلبة الأكثر إبداعا إلى ذكر أنواع العلاقات الأقل سلبية وليس الأكثر إيجابية مع الأم .

وإذا كان للوالدين دور أساسي في تنمية الابتكارية لدى أطفالهم ، فلا بد أن يتمتع الوالدان بالابتكارية أو على الأقل بالتفكير الابتكاري ، ولذلك لابد أن يشاركوا أطفالهم أنشطتهم التفكيرية والابتكارية ، ولا مانع من تربية الوالدين وإكسابهما المهارات

الابتكارية ذات الصلة بنمو الطفل مثل الابتكارية في تعليم القراءة والكتابة والابتكارية في تعليم بعض المهارات والابتكارية في نمو الأطفال ، كما يمكن إشراك الوالدين أو أحدهما في الأنشطة التربوية النظامية لرياض الأطفال حتى يكتسبوا مهارات تنمية الابتكارية عند أطفالهما .

كما يجب ملاحظة أن دور الأبوين في تنمية أطفالهم لا يتضاءل بمجرد دخول الأبناء المدرسة ، بل يستمر هذا الدور وبكثافة في تحقيق التوازن الأمني والنفسي للطفل مع البيئة الخارجية والمؤثرات المختلفة التي يتعرض لها الطفل سواء أكانت إعلامية أو تربوية أو من جماعات الرفاق .

فالسّمات الشخصية للوالدين من أهم العوامل التي تنمي مهارات السلوك الابتكاري لدى الأطفال وتأكيد الاتجاهات التي تساعد على نمو القدرات الابتكارية عندهم ، كما أن نوع العلاقات التي تسود بين أفراد الأسرة وأساليب التعامل مع الأطفال وتربيتهم والجو الذي يهيئه الأسرة لهم يساعد على شحذ طاقات الأبناء الابتكارية وتنميتها في مجالات الإبداع المختلفة في الفنون والآداب والعلوم (٣٣ / ١٥ وما بعدها) .

والسّمات الشخصية للوالدين تساهم في نمو الابتكارية عن طريق تدعيم الصفات الإيجابية عند الآباء وتشمل : (٤٧ / ٧٤)

- تفتح الذهن .
- القدرة على التكيف .
- البعد عن التزمّت .
- عدم التسلّط .
- القدرة على تناول وجهات النظر المتعددة .
- القدرة على منح الطفل الاستقلالية .

فواجب الآباء والأمهات تشجيع أطفالهم على اللعب سواء التمثيلي أو الدرامي أو الإيهامي لأنه المقدمة المرحلية للتفكير الابتكاري ، وخلق الفرص المناسبة للعب والتخيل وحرية التعبير وإشاعة الثقة بالنفس والتقدير لمثل هذه الأنشطة الابتكارية .

ويجب أن نعرف أن الطفل لا يقلد أولاً إلا أبويه ، فالطفل يتخذ من أبيه وأمه قدوة له طوال حياته ، ويمثل أفعالهما أمامه دائماً في كل مراحل نموه ، ولذلك فإن كان الأب مبتكراً كلما كان الطفل أكثر قدرة على الابتكار ، كما أن انتقال الخبرة من الآباء والأمهات للأبناء هام جداً وصورة طبيعية لدور الآباء والأمهات لتواصل الأجيال ، ومن ثم فإن المثل يقول (من شابه أباه فما ظلم) وكما يقول الشاعر (٣٣ / ٨٤-٨٥) :

الأم مدرسة إذا أعددتها أعددت شعباً طيب الأعراق

ففاقد الشيء لا يعطيه ، والأب والأم عندما يكون لديهما التفكير الابتكاري والإبداعي ينقلانه بسهولة لأبنائهما ..

ويتضح كذلك أن الأطفال يقلدون آباءهم لشعورهم أن آباءهم أقوى وأعقل وأذكى الأشخاص في العالم وأن آباءهم يتمتعون بالحكمة والقوة والقدرة على فعل أي شيء والابتكار الدائم .

٣ - أساليب التنشئة الأسرية وتنمية الابتكارية عند الأطفال :

الطفل ينمو منذ مولده داخل الأسرة ويعيش طفولته المبكرة بالكامل داخل الأسرة ، وفي عمر عامين يتساءل عن الأشياء وأسمائها ، ويحاول أن يقلد الأصوات ، ويتعلم من الخبرات المباشرة ويرتقي بفكره وبنفسه وينمو بجسده وعقله وإبداعه وابتكاره ، ولذلك فإنه يتأثر بأسلوب تعامل الأبوين مع أبنائهما ومدته بالخبرات الملائمة للارتقاء بالأطفال .

ومن أساليب التنشئة الأسرية : التوازن بين إنماء قدرات الأطفال الإبداعية والابتكارية والفكرية مع التنشئة الاجتماعية للطفل على القيم والعادات والتقاليد ، وذلك وفق منهج التعامل مع الأبناء الذي يقوم على السماح ، أي الجمع بين دفع العلاقة والتوجيه ، والتشدد وعدم الاتساق ، لأن اتسام أسلوب التنشئة لدى الأبوين بأي درجة من التسلبية وأقل درجة من التضييق على الطفل والتشجيع على الاستقلال

يساهم ذلك بشدة في تفاعل الأبناء بالابتكارية والإبداع ، فاحترام الأبناء كذوات متميزة والثقة فيهم وفي إمكانياتهم يسبب تنمية الإبداع والابتكار .

ونستطيع أن نجمل عناصر أساليب التنشئة الأسرية التي تساعد على تنمية الابتكارية لدى الأطفال فيما يلي : (٥٨ / ١٢٧-١٢٨)

- إعطاء الأبوين لأبنائهما قدرا كبيرا من وقتها وجهدهما لرعاية مواهب الأبناء منذ الطفولة المبكرة ، وذلك بإحاطتهم بكل ما ينمي مواهبهم ويصقلها .

- إتباع أسلوب التربية الذي يأخذ صورة التوجيه وليس الضغط ، والترشيد وليس السيطرة ، فضلا عن تخليق الاتساق في حياة الطفل ، لكي تنمو لديه فكرة أن بإمكانه التنبؤ بالعالم المحيط به ، ومن ثم معالجة هذا العالم والتحكم فيه .

- تقبل المقارنة من جانب الأبناء ، وعدم الاستحسان المطلق للتقليد والمجازة ، فالطفل وهو يفصح عن إبداعاته يختلف بالضرورة عن أقرانه في أسلوب تفكيرهم ، وكثير من الآباء يضيق بهذه المقارنة ، غافلين عن حقيقة اختلاف كل طفل عن الآخر ، ولو صرنا جميعا صورة واحدة من بعضنا البعض ما صار هناك إبداع في هذا العالم .

- إعطاء الأطفال قدرا كبيرا من الاستقلال ، سواء في ممارسة الهوايات والاهتمامات ، أو في تكوين رؤى خاصة بهم والتي تأتي نتيجة التفكير ، فليس مفترضا تحديد كل جوانب الكيفية التي يتعامل بها الطفل مع موضوعات اهتمامه إلا عندما تمارس اللعب معه ونوجهه قليلا في إطار الاهتمام بما يفعل الطفل .

- الثقة في الطفل وإمكانياته والتعامل معه على أن له شخصية قادرة على الاستبصار والمشاركة في مواقف الحياة المختلفة ، ويتم ذلك من خلال النقاش مع الطفل فيما يثيره من موضوعات مختلفة ، والتي كثيرا ما يضيق بها الآباء ...

فهذه الوسيلة تساعد الطفل في أن يكون قادرا على أن يجدد الوسيلة التي يحقق بها ذاته .

- معرفة الأسرة أن الفكرة الصغيرة مقدمة للفكرة الكبيرة ، فإذا لاحظ الأب أو الأم أو الأخ أن اهتمام أحد ما من أفراد الأسرة بعمل ما يدعوه لأداء ما يفوق المطلوب لهذا العمل ، كان هذا دليلا على أن هذا الفرد متجه نحو الخلق والابتكار ، فكم

من فكرة صغيرة خلاقة - حتى لو كانت في مشكلة من المشكلات البسيطة مثل طريقة مخالفة لما في الكتاب للوصول إلى إجابة مسألة صحيحة - تطبق في ميدان من ميادين الاهتمام ، وتقود الفكرة نحو الخلق والابتكار .

- ومن الضروري للأسرة أن تهيب لصاحب الفكرة الابتكارية ظروفًا خاصة تساعده على التفكير المجزي ، وهذه الظروف التي توفرها الأسرة تهيب للمبتكر أجود أنواع التفكير أو الاختراع أو الابتكار أو الإبداع ، فبعض المبتكرين يكون عملهم في الصباح أحسن ما يكون وآخرون يكون عملهم في المساء أجود ما يكون .

- لا بد أن تدرك الأسرة أنه كثيرا ما يكون الابتداء صعبا وخصوصا عندما يكون موضوع الابتكار أصيلا وفريدا ، وما التشابكات والملابسات فيما بين الأفكار والأشياء إلا بذور للاختراع والابتكار .

- يجب على الأسرة معرفة أن المبتكر يجب أن يدرّب نفسه على الاستطلاع والبحث عن الأسباب والمسببات ، فالطفل الذي يداوم الاستفسار والسؤال : (لماذا) لكل ما يحيط به من أشياء يصل للابتكار حتما عندما يكبر . (٦٤-٦٣/٢٥)

- تشجيع الأسرة الدائم لأبنائها للابتكار ، فالفكرة الكبيرة تأتي من فكرة بسيطة ، والإبداع العالمي يأتي من إبداع محلي بيئي والصعود للآفاق العالمية لا يأتي فجأة ، وإنما يأتي بالجد والإصرار ، وكما قال أحد العلماء (أظن أن الإنسان يظل يسعى دائما للوصول إلى مستويات في الخلق والابتكارية تفوق مستويات الماكينات في ذلك) ، ولا بد أن تعي الأسرة أن الإنسان هو الذي اخترع الماكينات التي حولها ، وأن ابنها ذو التفكير الابتكاري يستطيع أن يتكر ما هو أكبر وأصعب مما حولها من آلات وماكينات وأجهزة تقنية مختلفة .

ومن هنا يتضح أن أسلوب السماح هو الأسلوب الأكثر تناسبا مع الطفل لتنمية الابتكارية لديه ، عكس أسلوب التشدد وعدم الاتساق لأنهما غير ملائمين لهذا الغرض ، ولا بد أن نعرف أن التكامل بين هذه العناصر الخمسة لأسلوب التنشئة الأسرية يساعد على خلق أجيال عديدة من الأطفال المبدعين والمبتكرين .

٤- الأسرة والتطبيق العملي لتنمية الابتكارية لدى أطفالها :

وإذا نظرنا إلى جوانب وعناصر تنمية الابتكارية وتدعيم الشخصية الابتكارية في نفوس أطفالنا ، نجد أن الأسرة تتمتع بنحو أحد عشر عنصرا تطبيقيا تستطيع من خلالها تنمية التفكير الابتكاري والأداء الابتكاري والإبداعي لدى الأطفال ، وذلك من خلال ما يلي : (٥٨ / ١٢٩ وما بعدها) (٧٨ / ٣٥٤)

أولا : القيام بالتعليم غير المباشر للطفل : عن طريق استغلال الأحداث اليومية العادية : ويتضمن السياق الأسري عدیدا من العوامل المساعدة على تعليم الأطفال ، وربما كان السبب في ذلك هو أن الأسرة تستوعب في إطارها الكثير من النشاط اليومية التي يقوم بها الأب والأم ، كما يقوم بها الإخوة ، ومن ثم فإنه بإمكان الأبوين توظيف النشاط في تعليم الأطفال .

ولبيان كيفية حدوث هذا دعنا نفترض أنك تضع كتابا في أحد أرفف مكتبتك وسألك صغيرك هذا السؤال (ماذا تفعل يا أبي ؟) ، فلا بد من إخباره أنك تضع كتابا في مكتبتك . وقد يجربك ردا على إجابتك هذه بأن هناك كتابا آخر تضعه على المكتب . وعلى هذا التعليق يمكنك أن تخبره بأنك قد تركت هذا الكتاب على المكتب لأنك تنوي قراءته بعد قليل ، وقد يجربك ردا على إجابتك بأن هناك كتابا آخر في حقيبتك . وعلى تعليقه هذا يمكنك أن توضح له بأنك تنوي أخذ هذا الكتاب إلى الجامعة أو المدرسة أو العمل لتقرأه هناك .

هذا الحوار إذا أدرته بينك وبين طفلك على هذا النحو يحتوي على الكثير من ضروب التعلم ، فقد يتعلم منه طفلك وظيفة المكتبة ، ووظيفة المكتب ووظيفة الحقيبة ، ووظيفة الكتاب ، كما قد يتعلم من هذا الحوار أيضا أن وضع الكتاب في مكان معين يحدد وظيفيا وقت التعامل معه ، وهذه خبرات ذات أهمية بالغة للطفل في مراحل العمرية المبكرة ، حيث تساعده على فهم البيئة المحيطة به ، ويعد هذا الفهم مدخلا أساسيا للارتقاء بقدرات الطفل المختلفة أيا كان نوعها .

ولكن هذه الخبرات إذا ما صنعتها على النحو السابق تنشط عند الطفل الإمكانيات الإبداعية أيضا . ففي الحوار السابق الطفل يسأل وأنت تجيب ، وتلقيه إجابات على

تساؤلات يطرحها مما يشجعه على طرح تساؤلات أخرى عديدة ، وهذا هو ما يشكل إمكانات المبادأة عند الطفل ، ويشكل لديه أيضا محاولة فهم الواقع ، وكلاهما يعدان بمثابة عنصرين أساسيين من عناصر إطلاق التفكير الإبداعي والابتكاري .

وقد يبدو ضروريا الإشارة إلى أهمية أن يتحدث الأبوان مع الطفل عن النشاطات المختلفة أثناء قيامهما بها ، حتى وإن لم يفهم الطفل ما يقال ، فقد يساعد إرساء هذه العادة على إمكانية قيام الطفل بتفاعل مع الآخرين ينمي فيه ذاته ، وهذا على الرغم من أن الفرد قد يجد نفسه في البداية متحدثا طوال الوقت والطفل مجرد مستمع ، لكن سرعان ما نجد أن الأمور قد تغيرت وأصبح الطفل يشارك في الحديث. وبهذا يثرى عالم الطفل ، ويتعلم بشكل غير مباشر أن أي شئ يقوم به الفرد له هدف معين ، ومن ثم تتخلق دافعية الطفل وحماسه للقيام بالمهام المختلفة خاصة إذا ما أبرز الأبوان وهما يحادثان الطفل الأسباب القائمة وراء القيام بهذا الشئ أو ذاك .

هذه الخبرة التعليمية كما وضحت نجدها تنسم بالكثير من الخصائص الموجودة في سياقات تنشئة الأطفال المبدعين . فهي خبرة تنسم بالدفء في العلاقة ، وبالشحن لقدرات الأطفال ، كما تنسم بالتوجيه والتعليم غير المباشر للطفل .. فهي لا تأخذ شكل السلقين كما تنسم أيضا بعدم التحكم أو السيطرة ، بل على العكس من ذلك فهي تؤكد استقلالية الطفل وفرديته وتميزه . فضلا عن هذا فهي خبرة ملائمة من حيث وفائها بمقتضيات حب الاستطلاع الملصق بالأطفال في أعمارهم المبكرة .

ثانيا : لا بد من الاهتمام بلعب الأطفال : فليست لعبة الأطفال وسيلة لشغل الوقت أو للتسلية فقط ، ولكنها قبل ذلك وسيلة تعلم ، فمن خلال اللعب يتفهم الطفل العالم المحيط به بطريقته الخاصة فكل طفل يتعامل مع لعبه بطريقة مميزة تعكس تصوراته الخاصة ورؤيته المحددة . كما أن هذه اللعب هي الوسيلة التي يتضح من خلالها الكشف عن اهتمامات الطفل في فترة مبكرة للغاية فنستطيع أن نعمقها وننميها لديه .

وعلى الآباء أن يضعوا في اعتبارهم عندما يختارون لعبا لأطفالهم أن تحكمهم قاعدتان بسيطتان للغاية :

(أ) أن يختاروا لعبا تسمح بإمكانية التعديل والتغيير فيها . فالمكعبات الخشبية ذات الألوان المختلفة ، والخرز الملون ، والطين والصلصال ، والصور غير المكتملة والتي يطلب من الطفل تكميلها لتصبح أشياء مختلفة هي نماذج من هذه اللعب لأنها تنشط خيال الأطفال ، أما اللعب الأخرى مثل لعبة تليفزيون أو قطار أو ما شابه ذلك من لعب فهي لا تنمي قدرات الطفل الإبداعية ، لأنها مجرد محاكاة لأشياء موجودة بالفعل وتحددت وظائف معينة لها ، ومن ثم فإنها لا تشجع قدرات الأطفال .. وغالبا ما يضيق الأطفال بهذه اللعب بعد فترة قصيرة من اقتنائها . وكم يبدو غريبا أن تكون اللعب الأخيرة باهظة التكاليف واللعب الأولى رخيصة الثمن !

(ب) لا تلتزم تماما بالمدى العمري الذي تقتضيه اللعبة لمن يتعامل معها ، ولا يعني هذا بالطبع أن تأتي بلعبة ملائمة لطفل عمره عشرة أعوام في حين أن عمر طفلك سنتان . لكن ما نعيه هو أن اللعب قد صممت لتلائم العاديين من الأطفال وليس للطفل المميز . ومن ثم فإنه بإمكانك أن تقتني لطفلك لعبا تتجاوز عمره عاما أو عامين لتحفزه وتثير اهتمامه ، خاصة إذا لمست في أذائه يسرا في التعامل مع اللعب المحددة لعمره .

ثالثا : لا بد من قضاء بعض الوقت مع طفلك وهو يلعب : هناك أهمية قصوى لمشاركة الأبوين اللب بين الحين والحين . وتعود أهمية هذا الأمر بوصفه تعبيرا عن دفء العلاقة بين الآباء والأبناء ، لكن إلى جانب هذه الوظيفة التي تنهض بها المشاركة فإن لها وظائف هامة أخرى في تنمية التفكير الإبداعي عند الأطفال الصغار ، فعندما نشارك الأبناء اللب فإننا نوحى لهم بأهمية ما يقومون به من أداءات ، كما نوحى لهم بالثقة في أنفسهم ، فإن يجلس الشخص القدوة مع طفل صغير ويشاركه لعبه ، فإنما يشعر الطفل الصغير بأنه يمثل شيئا هاما في نظر هذه القدوة ، وهذا عنصر من عناصر المناخ الخصب للإبداع .

كما أنه بتشجيعك الأطفال وهم يشكلون على سبيل المثال قطعة من الصلصال على نحو معين ، فإنك تزكي دافعيتهم في اتجاه تحقيق المزيد مما يرضيك ، فإثابة الأبناء وتدعيمهم وهم يمارسون هواياتهم لهما تأثير بين على الأطفال من حيث تحقيق التمكن من الأداء .

رابعا : لابد وأن تكون قدوة إبداعية لأبنائك : بمعنى إمكانية تعليم الأطفال الإبداع من خلال الاقتداء . ويرجع هذا إلى أن الإبداع في جوهره ما هو إلا أسلوب تفكير وأسلوب عمل ، وهو بحكم أنه أسلوب تفكير وأسلوب عمل فمن الممكن محاكاته ، فقد أوضح كثير من العلماء الذين حققوا لأنفسهم في مجالات العلم المختلفة أهمية (أن تقليدهم في بواكير أعمارهم خبرة العلماء المبرزين كان له أكبر الأثر فيما حققوه) ، فمن القدوات يتعلم الأطفال أسلوب التفكير وأسلوب العمل ، ويتعلمون أيضا الإحساس بأهمية العمل وتعبئة الجهد والطاقة .

ويستمد مفهوم الاقتداء من أنه بالإمكان حتى للأفراد الذين لا يؤدون سلوكا معيناً أن يؤدوه عند مشاهدتهم قدوة يفعل ذلك .

والتساؤل الآن هو : كيف يمكن للآباء أن يأخذوا دور القدوة في هذا الصدد ؟ وقد يرتبط بهذا التساؤل تساؤل آخر يمكن للآباء أن يطرحوه وهو : هل نحن مبدعون لكي يقتدي بنا أبنائنا ؟ .

والإجابة على هذين التساولين بسيطة للغاية ، فنحن جميعا مبدعون بدرجة أو بأخرى ، وبإمكاننا بقدر من التوجيه والمعرفة من خلال الاطلاع على بعض الكتابات الخاصة بالتفكير الإبداعي وكيفية تنشيطه أن نمارس ما لدينا من إبداع ونحن نتعامل مع أطفالنا .

ودعنا نفترض على سبيل الإيضاح بمثال عملي ، أن طفلا يلعب بقطعة من الصلصال وأردنا أن نقضي مع أطفالنا بعض الوقت وهم يلعبون ، وأردنا أيضا أن نصب أنفسنا قدوة يحتذونها ، بإمكاننا حينئذ أن نأخذ قطعة الصلصال ونقوم بتشكيلها تشكيلات مختلفة . تارة نصور بها نباتات وتارة نصور بها حيوانات وتارة أخرى نصور بها منازل وأبنية . وما علينا إلا أن نستحث الطفل بشكل مباشر أو غير مباشر على أن يفعل نفس الشيء .

هذا الذي نفعله أداء إبداعي . فعند تشكيل قطعة الصلصال في صور مختلفة فهذه طلاقة وعندما تأخذ التشكيلات صوراً متباينة تعد من فئات مختلفة من الأشياء فهذه

مرونة . وعند تشكيل قطعة صلصال في صورة متميزة غير مألوفة كأن تصور مثلا بركانا ألقى بحممه فهذه أصالة .

هذا مثال من كثير يمكن القيام به مع الأطفال ، وفيه نأخذ دور القدوة . ويأخذون هم فيه دور المقتدي والمحاكي لأساليب إبداعية .

خامسا : ضرورة تمكين الطفل من التحرر من الاعتمادية : إن الاتجاه الغالب عند معظم الآباء وخاصة في مجتمعنا هو أننا نلظ نتعامل مع الأبناء مهما كبروا في السن على أنهم ما زالوا أطفالا ، فنحن نوجههم في كل صغيرة وكبيرة . وربما يكون هذا الاتجاه امتدادا لكيفية تعاملنا مع أبنائنا ، وهم في شهور عمرهم الأولى ، فنحن نهرع إليهم ملين احتياجهم دون أن نشركهم بجهد ، وعادة ما يستمد أبنائنا هذا الاتجاه من جانبنا ، حتى بعد أن يصيروا رجالا ، فليس هناك أسير من الاعتماد على الآخرين ، ومن ثم النفور من المسؤولية .

والاعتماد على الآخرين والنفور من المسؤولية لا يمكنان الفرد على الإطلاق من أن تكون له رؤية خاصة في المواقف التي يمر بها ، فغالبا ما يجد نفسه أسير رؤية الآخرين وأسير مفاهيمهم ، ومن الطبيعي أن يجهض هذا الاتجاه الإمكانية الإبداعية عند الفرد .

والاتجاهات التي يكوها الأفراد ليست وليدة عشية وضحاها ، بل تتخلق على امتداد سنوات طوال من التنشئة ومن ثم يحسن البدء بغرس الاتجاهات الميسرة لتوظيف الإمكانية الإبداعية منذ السنوات الأولى من العمر .

ويقتضي هذا من الآباء أن يتقوا في أطفالهم ويشجعوهم منذ السنوات المبكرة لأن يؤديوا بأنفسهم كل ما هو بإمكانهم أن يؤديه ، ويصبح دور الآباء في هذه الحالة دور الميسر للأداء والمعين على تأديته بدلا من دور المنفذ لكل ما يريده الطفل .

سادسا : السماح للطفل أن يطرح من التساؤلات ما يشاء : إن الإبداع في كافة صورته ما هو إلا محاولة للإجابة على تساؤلات ، يستوي في هذا الإبداع في مجال العلم أو الأدب أو الفن . وقد يبدو غريبا مع هذا أن نجد الآباء يضيقون بتساؤلات أبنائهم .

وللآباء في مجتمعنا بعض العذر في هذا حيث لا تتوافر لهم مثل نظرائهم في المجتمعات الغربية معرفة علمية مكتوبة يسهل استيعابها ، عن الكيفية التي يتعاملون بها مع تساؤلات الأطفال وهذه إحدى المسؤوليات الملقة على عاتق الإعلام وعلماء السلوك والتربية .

ولذا فإننا نوصي الآباء ألا يضيقوا بتساؤلات أبنائهم .. بل ومن الواجب أن يشجعوهم على طرح المزيد منها . وإحدى الوسائل التي يتم بها هذا هي أن يتبادل الآباء مع أبنائهم التساؤلات . فإذا ما سأل الطفل أباه سؤالاً كهذا (كيف أجد هذه السيارة (لعبة) تسير ؟ ، فليكن رد الأب بسؤال آخر (وماهو رأيك أنت في كيفية سيرها ؟) ، وإن سأل الطفل (هل من الممكن لهذه السيارة أن تطير ؟) فليكن رد الأب (كيف يكون ذلك ؟) .

ويلاحظ أن عدداً ليس بقليل من التساؤلات التي يطرحها الطفل موجهة إلى جذب انتباه الأبوين أكثر منها معبرة عن حب الاستطلاع لديه ، ومع ذلك فإنه لا غضاضة على الإطلاق أن يتعامل الأبوان مع هذه التساؤلات على أنها كاشفة عن حب الاستطلاع عند الأبناء ، فما نريد أن نؤكد هنا هو ألا نجعل الطفل يتردد أمام سؤال يريد طرحه وخصوصاً على الأبوين .

سابعاً : تقبل الأفكار الغربية من طفلك ولا تضيق بها : كثيراً ما نلاحظ في أثناء حديث الأطفال مع أبويهم أنهم يقومون بإحداث تغييرات في قصص سبقت روايتها لهم ، وعندما يقوم الأطفال بهذا عمداً فمقصدهم منه خلق المداخلة مع أبويهم ، ولا بأس أن نتقبل منهم هذا مادامنا نوقن بيننا وبين أنفسنا أنهم يغيرون عمداً في تفاصيل القصص ليجعلوها مختلفة ، لكن علينا في هذه الحالة أن نساعدهم على جعل القصص منطقية حتى بعد إجرائهم التعديل عليها .

ثامناً : ساعد الطفل على أن تكون له مقتنيات وأشياء خاصة تتعلق باهتماماته : إنها إحدى مسؤوليات الآباء أن يساعدوا أبناءهم على اقتناء الأشياء المتعلقة باهتماماتهم ، فالطفل الذي يكشف عن اهتمام بالموسيقى يستوجب منا أن نساعدته بتوفير الآلة الموسيقية التي يرغب في العزف عليها ، مثل هذه المقتنيات تكون بمثابة دعم لاهتمامات الطفل وتنمية لموهبته .

ومن شأن تجاوبنا مع اهتمامات الطفل على هذا النحو أن يزكي في نفسه ضرورة إحراز تقدم في مجال اهتماماته ، لأنه سيقرب بين نفسه ومجال الاهتمام ، وهذه هي أولى المراحل لتحقيق الذات في أي مجال من مجالات الإبداع .

تاسعا : ساعدوا الأطفال على أن يستكشفوا بأنفسهم العالم المحيط بهم :
لعل من قبيل الاتجاه السائد لدى الآباء ألا يجعلوا الأطفال يستكشفون العالم المحيط بهم بقدر ما يجعلونهم يرون هذا العالم من خلالهم كأباء ، فهم يحدثون أبناءهم عن بعض الحيوانات مثلا دون أن يمكنوهم من رؤيتها ، كما يحدثونهم عن بعض الآثار دون أن يتيحوا للأطفال مشاهدتها .

وليس بالشيء الخاطئ بطبيعة الحال أن يطلع الآباء أبنائهم على العالم المحيط بهم .. لكن الخطأ هو أن تقتصر رؤية الأطفال للعالم على ما يقدمه الآباء لهم ، فمن الواجب عليهم أن يمكنوا أطفالهم من مشاهدة العالم المحيط بهم بأنفسهم ويكونوا انطباعات خاصة عنه ، فضلا عن أن هذا من شأنه أن ينمي اتجاه الاعتماد على الذات في استكشاف العالم المحيط بهم ، فإنه ينمي لديهم القدرة على استيعاب هذا العالم على نحو مميز (وهذا هو أحد مقومات الإبداع) ، فنحن لا نتمثل في رؤيتنا للعالم المحيط بنا ، حيث أنه بإمكان الشيء الواحد أن يترك تأثيرا مختلفا عند الأفراد .

عاشرا : هئية الظروف المناسبة لتمكين الطفل من أن يتعامل مع خياله :

تمثل ممارسة الخيال بالنسبة للفرد المبدع وسيلة هامة من وسائل ممارسة وإعمال فكره الإبداعي . والخيال بحاجة إلى تدريب لكي ينمو عند الفرد ، ومن ثم لابد من التشجيع عليه منذ الصغر ، والألعاب التي تقدم للأطفال وخاصة التي تشهد التفكير ما هي إلا وسيلة من الوسائل الممكنة من ممارسة الطفل لخياله .

هذا ويوصي بالفنون البصرية عامة والرسم خاصة كأحدى الوسائل التي يمكن بها ممارسة الخيال ، ويلتزم الرسم بصفة خاصة الأطفال ، فهو يسمح - إذا ما قام به الطفل دون أي تأثير خارجي أو إجماع - بأكبر قدر من حرية التعبير .

ولكي يمكن للرسم أن يقوم بدوره في إعمال خيال الأطفال فلا بد من التخلص من فكرة النسخ من صورة تقدم للطفل أو من فكرة تلوين صورة تقدم له ، فليس هناك أسوأ من هذا عملاً إذا ما كان المراد تنمية التفكير الإبداعي عند الأطفال ، ويرجع سوء هذا الأسلوب إلى أنه يفقد الطفل تلقائيته في عملية الرسم .

وقد يثار في مواجهة هذا النقد سؤال وهو : كيف يمكن إذن أن ندرّب الأطفال على الرسم ؟ والرد على هذا التساؤل هو أن التدريب على الفن لا يعني أن نخبر الطفل بما يجب عليه هو نفسه عمله وكيف يعمل ، فقد يكون من المناسب لسنوات ما قبل المدرسة أن نوحى للأطفال بموضوع عام وليكن (حفلة شاي) مثلاً ونطلب منهم أن يعبروا عنه بالرسم ، وبعد أن يقوموا بهذا نقدم لهم إرشاداتنا في صيغة تشجيع وإثابة ، وملحوظات غير مباشرة عند تقييم إنتاجهم الفني .

حادى عشر : لا بد من الارتقاء بالذوق الجمالي عند الأطفال : نحن
كأدميين نعاش الابتهاج عند مشاهدة الجمال على أية صورة كان ، فنحن ننجذب إلى ما هو جميل وننفر مما هو قبيح ، وهذا الإحساس الجمالي بحاجة لأن ينمو ويزدهر لكي يعمق ما لدينا ويتأصل ، وهذه إحدى مهام الأسرة بالنسبة لأطفالها ، ويمكن للأسرة ممثلة في الأبوين أن تقوم بهذا من خلال اصطحاب الأطفال إلى معارض الفنون المختلفة ومناقشة ما يعرض فيها ، كما أنه بإمكانها أن تفعل هذا من خلال مشاركة الطفل إحساسه بالمتعة وهو يقوم بشيء يرضيه ويمتعه .

★ ★ ★